

استخدام الباراديغمات في البحوث العلمية
Using Paradigms in Scientific Research

دليو فضيل^{*1}

fdeliou@yahoo.fr، جامعة قسنطينة 3 (الجزائر)

تاريخ النشر: 2023/12/31

تاريخ القبول: 2023/05/04

تاريخ الارسال: 2023/04/07

ملخص:

تستهدف هذه المقالة توضيح بعض المحددات المعرفية لاستخدام الباراديغمات في البحوث العلمية. وللقيام بذلك، تمت مراجعة بعض الأدبيات المتخصصة لتحقيق التغطية المعرفية للعناصر الآتية: الباراديغمات والمفاهيم المشابهة لها، فوائد استخدامها كخلفية نظرية للبحث، كيفية بناء الباراديغمات، إمكانية استخدام أكثر من باراديغم في بحث واحد، كيفية عرض الباراديغمات في متن البحث، أنواع الباراديغمات بنظرياتها في بعض البحوث العلمية، وذلك قبل عرض حجج من يرفض استخدام الباراديغمات.

الكلمات المفتاحية: الباراديغم، الإطار النظري، النظريات، البحوث العلمية.

Abstract:

This article seeks to clarify some cognitive determinants for using paradigms in scientific research. To do this, some specialized literature was reviewed to achieve knowledge coverage of the following elements: Paradigms and similar concepts, the benefits of using them as a theoretical background for research, how to build paradigms, the possibility of using more than one paradigm in one research, how to present paradigms in the body of the research, types of paradigms with their theories In some scientific research, and finally the arguments of those who refuse to use paradigms.

Keywords: *Paradigm, Theoretical framework, Theories, Scientific research.*

* المؤلف المرسل

1. مقدمة

الشائع عن البحوث العلمية -الكمية خاصة- أنها تنطلق من باراديغمات تسترشد بها في مختلف محطاتها التنفيذية. وذلك تقديرا لأهمية وجهات النظر المعرفية، حول ماهية العالم وكيفية مقاربة الواقع المجتمعي معرفيا، في توجيه وقيادة الأعمال العلمية.

وما دام هذا المقود معرفيا، فإننا بصدد الحديث عن كيفية مقاربة موضوعات البحث علميا في عالم متعدد المشارب الفكرية والأبعاد المجتمعية الواقعية. ولذلك، فالمعرفة -على حد تعبير "سكوليموفسكي" (Skolimowski) (Beltrán & Bernal, 2020)- مرتبطة بأشكال مختلفة لبناء العالم وفهم كنهه حدسيا وعلميا. من هذا المنظور، توفر المعرفة العلمية إطارًا محددًا لمفهوم الباراديغمات، حيث إنها تضع افتراضات منهجية وجودية (أنطولوجية) ومعرفية (إستمولوجية) يتم اعتمادها وقبولها من قبل المجتمع العلمي في فترة محددة.

إن معالجة هذا الموضوع ستسمح لنا بتبسيط مفهوم الباراديغمات وتطبيقاتها في مختلف مجالات البحوث العلمية، وذلك من خلال تقديم خلاصة مراجعتنا للأدبيات المتخصصة في هذا الموضوع، بدءًا بمدخل مفهومي فمبررات الاستخدام وكيفية البناء الأحادي أو المتعدد والتحرير والتصنيف، مع ختم العمل بعرض حجج رافضي استخدام الباراديغمات.

2. في المفهوم: الباراديغمات وأخواتها العملية

سيتم البدء بالحديث عن المفهوم الرئيس الوارد في العنوان (الباراديغمات) بالقول أن العلماء اعتمدوا عبر تاريخ العلوم عدة باراديغمات تؤثر على كيفية دراسة الظواهر، وتعكس هذه الباراديغمات وجهات نظرهم حول العالم وكيفية فهمه، ومنها: الباراديغمات الوضعية والتأويلية والبراغماتية... بنظرياتها السلوكية والوظيفية... والتي سيتم عرض بعضها بإيجاز لاحقا.

الشائع في الأدبيات المتخصصة المعرّفة لمفهوم "الباراديغمات" أنه النموذج النظري أو النمط الفكري السائد في فترة محددة. وبالنسبة لأحد أهم مستعمليه "كوهن/ Kuhn" - في كتابه الشهير: بنية الثورات العلمية، 1962، ص. 82- (في نسخته الإسبانية)، فهو عبارة عن المبادئ والمناهج والمعايير التقديرية التي يتقاسمها المجتمع العلمي والتي توفر إطارا فلسفيا لدراسة المجتمع بطريقة منظمة. أي أن البحث العلمي يقتضي استعمال نموذج معرفي موثوق به ويُجمع عليه الباحثون في وقت محدد، ثم يتم استبداله بآخر بعد ثورة علمية. لذلك فالباراديغمات تتوالى من خلال الثورات العلمية والقطيعات المعرفية... لكنها عادة ما تعتبر ذات طابع إقصائي في العلوم الطبيعية⁽¹⁾ وذات طابع تراكمي في العلوم الاجتماعية، ومن ذلك الاستخدام المتعدد والمتزامن لها في بعض البحوث الاجتماعية، والذي يؤيده "البراغماتيون" و"النسبيون" و"التعقيديون" و"الظرفيون" (Situationists)... كما سنرى لاحقا.

وعلى العموم، فمن خلال تعلم مثل هذه الباراديغمات، يكتسب الباحث نظرية(ة)ات ومناهج ومعايير تقديرية في شكل متكامل. ف"الباراديغم" حسب ما نقله "جوينيه" (Juignet, 2015) عن "كوهن" يشرعن مشكلات البحث وكذلك الحلول المقترحة لها. ولذلك ذاع صيته وكثر استعماله في مقدمات البحوث الجامعية منذئذ.

لكن في الممارسة البحثية، يمكن القول أن تسمية "باراديغمات" البحث تختلف باختلاف المقاربات والترجمات، فتسمى إسنادا أو أسسا أو مقدمات أو تقاليد أو أطرا أو خلفيات أو مداخل أو منظورات أو تصورات أو شَمَاعَات...: أسسا

(1) لذلك يؤكد أنصارها من الدوغمائيين (Dogmatists) و"الأصوليين" (Purists) ارتباطها بالخصائص الآتية: كون الباراديغمات حصرية ولا تعترف إلا بمعتقداتها ومناهجها وقيمتها، مع عدم وجود إمكانية نفيها أو تعديلها ولا قبول مفاهيم أخرى مغايرة لها، لأنها تصبح فاقدة للصلاحيّة، وهو ما لا يتم قبل حدوث ثورة علمية أخرى (Beltrán & Bernal, 2020). أي لا تعايش بين باراديغمتين في فترة واحدة، ولا اعتماد لأكثر من باراديغم في بحث واحد.

فلسفية/معتقدات (Guba, 1990)، أسسا إبستمولوجية (Anderson, 1996)، إبستمولوجيات (Crotty, 1998)، تقاليد نظرية (Craig, 2007)، مقدمات إبستمولوجية ووجودية ومنهجية (Denzin & Lincoln, 2008)، تصورات عامة/إطار عام (Neumann, 2006 ; 2009)، نظريات (Mertens, 2010) (Creswell,)، أطر نظرية/ مفهومية/ إرشادية (Evans, Coon & Ume, 2011)، خلفيات نظرية أو نماذج نظرية -ترجمتها الحرفية- أو منظورات عامة (Patton, 1978)، مداخل نظرية أو فئات نظرية (Rodrigo, 2001)، إسنادا نظريا أو حتى شَمَاعات/ خطافات (Hooks) تُعلّق عليها مشاريع البحث (Sandelowski, 1999) أو روحها ... (Sitwala, 2014, p. 185)

وهذا يشرعن -من الأدبيات المتخصصة سابقة الذكر- استعمال إحدى التسميات السابقة من طرف الطلبة في مقالاتهم وبحوثهم العلمية. كما يساعدهم في البحث الهادف في قواعد البيانات ومحركات البحث الإلكترونية باستعمالها ككلمات أو عبارات مفتاحية.

وفي حالة اعتماد مفهوم الخلفية النظرية -مثلا-، فهو لديه معنى خاص يقتصر على الأسس النظرية للبحث أو النظرية/ النظريات الموجهة للبحث، من خلال مخطط علائقي- تَمَرَّتِي لافتراضاتها ومفاهيمها. ومعنى عام يضيف إلى ما سبق الدراسات السابقة وحينها يفضل البعض تسميته "الإطار النظري" أو "أدبيات البحث" ... وأما إذا تعدى ذلك إلى كل الجانب النظري للبحث المعمول به عندنا في بعض الرسائل الجامعية: الدراسات السابقة، الأسس النظرية، تحديد المفاهيم الأساسية (النظرية والإجرائية)، التساؤلات/ الفرضيات والمتغيرات... وبعض الفصول النظرية، فيفضل تسميته "القسم النظري". وهي بالطبع تسمية تمييزية لتبرير وجود الفصول النظرية والتي يفضل عدم وجودها أصلا، لعدم وظيفيتها.

وفيما يلي عرض موجز لفائدة البارادبغيات كخلفية نظرية للبحث ولكيفية بنائها وتحريها ولأهم أنواعها.

3. فوائد استخدام الباراديغمات كخلفية نظرية للبحث

بالرغم من وجود من يقلل من أهمية استخدام الباراديغمات، أو حتى من يعارض استخدامها - كما سيتم عرضه لاحقاً-، فالمقام يقتضي عرض موجز لأهم ما ورد في بعض الأدبيات المتخصصة (Beltrán & Bernal, 2020; Creswell, 2014; Evans, Coon & Ume, 2011; Mertens, 2010; Denzin & Lincoln, 2008; Brannen, 2005...) حول الفوائد المحتملة لاستخدام الباراديغمات كخلفية نظرية في البحوث العلمية، فهي:

- تساعد على تحديد المجال النظري للبحث، بذكر موقع موضوع البحث من مجموع المعارف النظرية المتخصصة، عند من يعتقد بعدم وجود اختيارات منهجية ضمن "فراغ فلسفي"، على حد تعبير "برانن" (Brannen, 2005, p. 7).

- تساعد على تجنب الانحرافات (المفهومية، النظرية...) التي قد تطرأ على الطرح الأصلي لموضوع البحث.

- توفر للباحث مجموعة منسجمة من المفاهيم والاقتراحات التي تساعد على مقارنة موضوع البحث وتوجيهه (كيفية إنجازه). أي تساعد في تصميم البحث، وفي توفير مخطط منظم وفعال لجمع البيانات من مصادر مختلفة.

- تساعد في بيان مقترحات اختبار النظرية المقترحة (في البحوث الكمية خاصة).

- تساعد على وضع التساؤلات/ الفرضيات وصياغتها وعلى تفسير/ تأويل النتائج (بالرجوع إليها).

- تساعد في تلخيص النتائج وتنظيمها في بنية واضحة ومتناسكة، مع تبيان فوائد نشرها.

- توجي بمسارات ومجالات بحثية جديدة.

- تساعد على تجنب الوقوع في أخطاء ارتُكبت في بحوث أخرى.

كما يمكنها أن تساعد في ضبط كيفية التعامل مع مختلف محطات بحوث المناهج المختلفة المتزامنة أو المتوالية - وخاصة في الأوقات الحرجة التي يتردد فيه

الباحث-، وأن تسهل إدماج إجراءاتها المنهجية في مرحلة واحدة على الأقل من البحث (Evans, Coon & Ume, 2011, pp. 3-4).

4. كيفية بناء الباراديغمات

تتم عملية بناء الباراديغمات في البحوث العلمية عبر مرحلتين: مراجعة الأدبيات والتبني.

1.4. تفيد مرحلة مراجعة الأدبيات المتخصصة في تكوين نظرة معرفية شاملة حول الموضوع من خلال استعراض الباراديغمات ذات الصلة والمعرفة العلمية العامة والخاصة المحتمل ارتباطها بموضوع البحث.

2.4. مرحلة التَّبَيُّ

بعد مرحلة المراجعة، فإن عملية التبني تخضع لما قد يتوافر في الأدبيات المتخصصة من باراديغمات ونظريات ذات الصلة. ويشير "ت. غراخالص" (Tevni, 2000, pp. 2-3) إلى الاحتمالات الآتية:

- وجود باراديغم ونظرية -تابعة له- مكتملة التطور تنطبق كليا على مشكلة البحث. وفي هذه الحالة يمكن استخدامها كبنية للإطار النظري لكن مع إمكانية إعطائها منحنى تجديديا في البحث أو اختبارها في حالة عدم تطبيقها من قبل في سياقات مختلفة. ويمكن صياغتها تبعا لتطورها التاريخي أو تبعا لمفاهيمها الأساسية أو مقترحاتها (مقترحا تلَو الآخر).

- وجود باراديغم وعدة نظريات -تابعة له- تنطبق بصورة متفاوتة على مشكلة البحث. وفي هذه الحالة يمكننا استخدامها أكثرها تميزا بمتطلبات النظرية الجيدة وأكثرها مناسبة للموضوع. كما يمكن الأخذ من كل نظرية ما يتعلق بمشكلة البحث مع تجنب الوقوع في تناقضات منطقية أو معرفية. والأفضل عمليا في الحالات المعقدة، استخدام إحداها كأساسية ثم إضافة عناصر مفيدة من نظريات أخرى. ويجب حينها البدء بعرض توضيحي لكيفية إدراج مختلف العناصر في الإطار النظري

الأساس. وبالطبع، فإن مؤيدي استخدام مقاربات ومناهج متعددة في العلوم الإنسانية ينصحون عادة باعتماد التعددية في هذا المجال.

- عدم وجود باراديجم ولا نظرية مناسبة لموضوع البحث بل تعميميات إمبريقية تنطبق على البحث. نقوم حينها ببناء إطار نظري خاص. "عندما نجد اقتراحا وحيدا أو نرغب في حصر البحث في تعميم إمبريقي واحد، يتم بناء الإطار النظري بإدراج النتائج أو الخلاصات التي توصلت إليها البحوث السابقة، تبعا لمخطط منطقي" (Hernández, 1991, p. 49). وفي حالة وجود عدة اقتراحات نابعة من بحوث مختلفة، نقوم بتحليل هذه الدراسات مع القيام بالجمع بينها تبعا لمؤشر منطقي. كما يمكن مقارنة هذه المقترحات أو التعميمات الإمبريقية بإطار نظري يشمل كل متغيرات بحثنا، مع تعريفها والإشارة إلى التعميمات أو المقترحات الإمبريقية التي لها علاقة بالمتغيرات.

- عدم وجود نظريات ولا تعميمات إمبريقية ولا بحوث سابقة خاصة بالموضوع. في هذه الحالة، من الضروري البحث عن أدبيات -رغم كونها غير متعلقة مباشرة بموضوع بحثنا- يمكنها مساعدتنا على فهم بعض حيثيات بحثنا وتوجيهه. حينها، يجب أن يكون الباحث مبدعا ليتمكن من إيجاد مجالات بحثية ومفاهيم نظرية، رغم عدم تعلقها مباشرة بموضوعه، لكنها قد تكون لها أبعاد تساعد في توجيه البحث. ويفضل البعض حينها عدم الكلام عن إطار نظري بل عن إطار مفهومي أو مرجعي يتم اقتراحه من طرف الباحث.

ولذلك، يمكن اعتبار أن الإطار النظري يشير إلى النظرية(ة) أو إلى مجموعة من المفاهيم المنتمية إليها والتي اختارها الباحث لتوجيهه/إرشاد بحثه، وفي حالة تقدير الباحث أنه لا يمكن إسناد بحثه إلى أي نظرية فهو يلجأ إلى تجميع/ تلخيص بعض وجهات النظر المتوافرة في الأدبيات المتخصصة (أفكار نظرية ونتائج إمبريقية) حول موضوعه. ويمكن اعتبار خلاصته هذه إطارا مفهوما أو على حد تعبير "المهر وسميث" (Liehr & Smith, 1999) (Sitwala, 2014, p. 189) وجهة نظر

متكاملة حول موضوع البحث، أي أن الإطار المفهيمي هو نتاج تجميع عدد من المفاهيم ذات الصلة بموضوع البحث.

وتجدر الإشارة في الأخير إلى الملاحظة الآتية: في جميع الحالات سابقة الذكر، فإن عملية التبني تتم انطلاقاً من جسم نظري أوسع، أو مباشرة من نظرية معينة أو تصور نظري خاص. كما قد يكون هذا المنطلق عبارة عن مزيج انتقائي من منظورات نظرية مختلفة وأحياناً متناقضة. ويجب الأخذ بعين الاعتبار أنه إذا كان اختياره عملية مسبقة للبحث فإنها ليست عملية غير مؤثرة: لأنه إذا كان غير مناسب أو غير كاف فإن الإجابة على المشكلة – حتى في حالة حسن طرحها – ستكون غير مناسبة أو غير كافية أو خاطئة. ومع ذلك لا يمكن المبالغة في تطبيقه على الواقع المدروس، لأن طبيعة العلوم الاجتماعية تقتضي تجنب تطبيق فئات التحليل خارج المجتمعات التي أنتجت بداخلها والتي تحكمها ظروف زمنية ومكانية خاصة. فمن الناحية العلمية لا يمكن منح الصدقية لفئات تحليلية اجتماعية خارج الحدود التي صيغت من أجلها (Ander-egg, 1995, pp. 154-155).

5- هل يمكن استخدام أكثر من باراديجم في بحث واحد؟

يقترح الكيفيون وأنصار التعددية المنهجية:

أولاً، إمكانية إتباع نماذج نظرية مختلفة في مراحل مختلفة من البحث، وذلك تبعاً للمقاربة التوفيقية المهمة بين الباراديجمات الكمية والكيفية والتي تعتمد على التمييز الوظيفي بين المراحل الثلاث المختلفة لعملية البحث (الاكتشاف/ الافتراض والاختبار وتطبيق النتائج/التبرير) معتبرة أن لكل مرحلة منطقها. وهذا يعتمد على الرأي القائل بأن الباراديجمات مستقلة منطقياً فلا يتأثر بعضها ببعض (Denzin, 2012).

وثانياً، إمكانية الجمع بين أكثر من نموذج نظري بسبب تعقيد الموضوعات الدراسية وتعدد سياقاتها وضخامة البيانات المرتبطة بها، وانتقائية إدراكنا وتصورنا لها، أو بسبب وجود باراديجمات (براغماتية، نسبية، ظرفية، تعقيدية،

بيئية...) ومناهج مختلطة تتيح إمكانية اعتماد أي مقارنة فلسفية و/ أو منهجية لدراسة أي مشكلة بحث قيد الدراسة (أنظر العنصر 7).

6. كيفية عرض الباراديغمات في متن البحث

إن مناقشة هذا الأمر مع الطلبة عادة ما كان يفضي إلى تقديم الاقتراحات الآتية:

- يكون عرض الباراديغمات في شكل موجز ومبسط قدر الإمكان، مع التركيز على ما له علاقة بموضوع البحث (من أسس وفرضيات). وبالطبع، عادة ما يقتضي هذا الإيجاز في العرض عدم إفراد باراديغمات البحث (تخصيصها) بفصل كامل ولا حتى بمبحث منفرد، بل يفضل الاكتفاء بتضمينها في عنصر الإشكالية (المقدمة)، وخاصة إذا كانت نظرياتها معروفة وكثيرة التداول ولم تكن طبعاً من متغيرات العنوان الرئيس للموضوع. كما أن حجم عرضها تحدده طبيعة محتواه وكذا طبيعة موضوع البحث. فمثلاً في موضوع: بناء الأخبار/ترتيب الأولويات/ في فضائية عربية ما... تفصل نظرية ترتيب الأولويات.

- من الأفضل توثيقها من مراجع "أولية" مختلفة، إلا عند الضرورة.

- من الأشكال المفيدة في التلخيص والإيجاز مع المحافظة على محتوى معرفي معتبر، صياغة مخططات وملخصات بيانية (للمفاهيم الأساسية) تساهم في تشكيل نظرة كلية إدماجية لما توافر من أدبيات نظرية متخصصة حولها.

- وفي الأخير، تجدر الإشارة إلى أن هناك من يفضل عدم ذكرها أصلاً، ويبرر ذلك بكون طبيعة النظريات والمفاهيم والمناهج والأدوات... المستخدمة في البحث تكفي للدلالة عليها (تلميحا وليس تصريحاً). لأنه يرى بأنها عبارة عن مجموعة مقترحات متعلقة بمجال معين (مجتمع بشري، مثلاً) يتضمن بعض المفاهيم (الخلافة، الأمة، التدافع... أو الطبقات الاجتماعية، الصراع... أو النظام، الوظيفة، المكانة...) التي تشكل مجموعة متجانسة من حيث انتماؤها إلى المجال الأيديولوجي نفسه: إسلامي، ماركسي، رأسمالي...

7. أنواع الباراديجمات بنظرياتها في بعض البحوث العلمية

1.7. بعض تصنيفات الباراديجمات

في البداية، يمكن القول أن كل الباراديجمات بكل نظرياتها ومناهجها وأدواتها... تعود خلفيتها إلى الصراع الموجود في الفكر الفلسفي الغربي بين ثنائية الرومانسية المثالية الألمانية وسليتها البنائية التأويلية، والوضعية الإمبريقية الفرنسية بخلفيتها المنطقية الأرسطية. مع الإشارة إلى أن هناك من يرى أن النماذج النظرية (الباراديجمات) الموجهة للبحث ليست ثنائية بل ثلاثية أو رباعية أو أكثر (دليو، 2022، ص ص. 17-18).

وما دام ليس هناك إجماع في الأدبيات المتخصصة حول عددها، فسيتم فيما يلي الاكتفاء بذكر أهم تصنيفات الباراديجمات المرجعية المتداولة في بعض تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية (علم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال خصوصا) بحكم التجربة الشخصية، وذلك بغض النظر عن مدى تقدير الالتزام أو عدم الالتزام بمتطلبات ذلك:

- تصنيف "بلتران وبرتال" (Beltrán & Bernal, 2020): الباراديجم الوضعي (النظريات كحقائق مطلقة) والتأويلي (بناء الواقع ذاتيا) والنقدي (التحرر من أجل التحول الاجتماعي) والشمولي/ التعقيدي (كباراديجم ناشئ)، مع إشارتهما العابرة إلى الباراديجم "الإيكولوجي" المعبر عن النظرة الشاملة للعالم.

- التصنيف الثنائي لـ"ماتلارو" ماتلار (Mattelart & Mattelart, 1997): الباراديجمان الوظيفي والنقدي.

- تصنيف "ماكويل" (McQuail, 2002): الباراديجم المهيمن (الوظيفية) والباراديجم البديل بنظرياته الثمانية: نقدية، سياسية-اقتصادية، نصية-لغوية، ثقافية، تكنولوجيا وسائل الإعلام وآثارها، معيارية... والتي حصرها "فليك" (Flick, 2009, pp. 57-63) في أربعة أعتبرها الأكثر تطورا للبحوث الكيفية: التفاعلية الرمزية والظاهراتية والبنائية والإثنوميتودولوجيا، بينما حصرها "ماكسويل"

(Maxwell, 2012, p. 224) في الأربع الموالية: النظرية التأسيسية (المتجذرة/ Grounded theory) والواقعية النقدية والظاهراتية والسردية. وهناك طبعاً من يضيف "ما بعد الوضعية" بفريقيهما: الذاتيين والواقعيين النقديين (النسبيين) (Bhattacharjee, 2012, p. 18). مع الإشارة إلى أن النظرية التأسيسية مستمدة من التفاعلية الرمزية وأن ما بعد الوضعية متداخلة مع الواقعية النقدية (لمزيد من التفصيل أنظر: دليو، 2022).

- التصنيف الثلاثي لـ"رودريغو" (Rodrigo, 2001): الباراديجم الوظيفي (لأسويل، لازارسفيلد، ميرتون، شرام...)، والتأويلي (مدرسة بالو ألتو، التفاعلية الرمزية، البنائية، الظاهراتية...)، والنقدي (مدرسة فرانكفورت، الاقتصاد السياسي، الدراسات الثقافية...).

- تصنيف "باران ودايفس" (Baran & Davis, 2006): ذكر أربع فئات عامة: ما بعد الوضعية والتأويلية والنقدية والمعيارية (دليو، 2018، ص ص 57-58).

- أما أشهر التصنيفات التي يمكن الرجوع إليها لتبني إطار نظري موجه في علوم الاتصال فهو الذي حدد فيه "كرايغ" (Craig, 1999 ; 2007) سبع "تقاليد" رئيسة لنظرية الاتصال (في كتاب 1999) تتميز بمفاهيم اتصالية عملية مختلفة تكمن وراءها وهي: البلاغة (فن ممارسة الخطاب)، السيميائية (تواصل الذوات من خلال الإشارات/ العلامات)، السيبرنتيكا (معالجة المعلومات)، الظاهراتية (التجربة المباشرة للآخر)، علم النفس الاجتماعي (تعبير، تفاعل وتأثير)، النظرية الاجتماعية الثقافية (-إعادة إنتاج النظام الاجتماعي) والنظرية النقدية (تفكير خطابي). وهناك من أضاف تقليداً ثامناً، أقره "كرايغ" لاحقاً (2007) هو "البراغماتية".

وكلها تبدو تصنيفات عامة مألوفة في معظم تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية وهي غير مميزة نظرياً لمجال الاتصال تحديداً. مع الإشارة إلى أن هناك من يضيف أنواع أخرى مثل:

- المدخل النسقي الشامل، الذي يركز على التوافق بين عناصر النظام وبينه وبين محيطه (Portillo, 2022, p. 198) (سيتم ذكره لاحقا كباراديج في مجال الاتصال)، والمدخل النظري الإسلامي (أمزيان، 1992؛ زعيبي، 2011) لاستجابته أكثر لواقع مجتمعاتنا الإسلامية، لأن طبيعة العلوم الاجتماعية - كما مر معنا- تقتضي تجنب تطبيق فئات نظرية تحليلية خارج المجتمعات التي أنتجت بداخلها و/ أو من أجلها، بحكم اختلاف السياقات "الزمكانية" المؤثرة حتما على صدقية النتائج.

بل هناك من يصنف الباراديجمات تبعا لطبيعة البحوث الكمية والكيفية ولمرجعيتها النظرية الاستنباطية-الاستقرائية إلى الثنائيات الواردة في الجدول (1):

جدول (1) يوضح تصنيف بعض مرجعيات المناهج الكمية والكيفية

الابستمولوجيا (نظرية المعرفة)	الانطولوجيا (ماهية المعرفة)	النظرية	
وضعية	موضوعية (الواقع الاجتماعي مستقل عن إرادة الأفراد)	استنباطية	كمية
تأويلية	ذاتية (الواقع نتاج عمليات اجتماعية/ بناء اجتماعي)	استقرائية	كيفية

المراجع: بتصريف عن: Atkinson, 2012, p. 165

ملاحظة: تشير الانطولوجيا إلى افتراضاتنا حول كيف نرى الواقع الاجتماعي، أما الابستمولوجيا فتشير إلى افتراضاتنا حول أفضل طريقة لدراسة هذا الواقع (Bhattacharjee, 2012, p. 18).

كما يمكن جعل الباراديجمات -تبعا لطبيعة البحوث سابقة الذكر- ثلاثة أنواع: باراديجم كمي وثان كفي وثالث مختلط، وهذا يتطلب مقارنة تحليلية مغايرة للتي نحن بصددتها الآن.

2.7. أنواع من الباراديغمات بنظرياتها

سيتم فيما يلي ذكر أنواع من الباراديغمات مرفقة ببعض النظريات التابعة لها، وذلك بدءًا بالثنائية الشهيرة التي تم ذكرها في المبحث السابق (الوضعية-التأويلية) ثم نذيلها بعرض بعض الباراديغمات شائعة الاستخدام في بعض الأدبيات المتخصصة (...Portilla, 2022; Beltrán & Bernal, 2020):

- الباراديغم الوضعي: من وجهة النظر الإستمولوجية، يميّز هذا الباراديغم تمييزاً واضحاً بين الباحث كشخص محايد والواقع الذي يتم تناوله والذي يُفترض أنه بعيد عن تأثيرات الباحث العلمي، لكون ماهيته المعرفية مستقلة-أنطولوجياً- عن إرادة الأفراد، وهو يخضع لقوانين الطبيعة. وبالتالي فموضوعاته البحثية تكون قابلة للملاحظة والقياس إمبيريقياً.

- الباراديغم التأويلي: يدعو هذا الباراديغم إلى دراسة المعاني الذاتية وتصورات الفاعلين، والمعاني الممكنة للنص... وليس ما يقوله النص ظاهرياً: بحوث مدرسة "بالو ألتو" وتلك المعتمدة على التفاعلية الرمزية في دراستها لتصورات وتمثيلات المشاركين في البحث.

- الباراديغم النقدي: يوجه هذا الباراديغم البحث نحو استراتيجيات وسائل الاتصال المستهدفة للإقناع والتلاعب بالجمهير بغية الإبقاء على هيمنة الأقوياء وعدم المساواة الاجتماعية: خلفيتها ماركسية وأهم أعمالها تابعة لمدرسة فرانكفورت وتيار الاقتصاد السياسي... (ماركيوس، هابرماس، بورديو، غتلين...)

وضمن هذا المدخل، هناك من يضيف الدراسات الثقافية بفرعها النقدي (الماركسي البريطاني) والتوافقي (الأنثروبولوجي الأمريكي).

- الباراديغم البراغماتي: يؤطر هذا الباراديغم جميع أنواع البحوث بنظرياتها ومنها المستعملة للمناهج المختلطة (Mixed) والتي تعددت تسمياتها تبعاً لطبيعة الإجراءات العملية التجميعية المستعملة في البحث (دليو، 2023): الهجينة (Hybrid)، التكاملية (Complementation)، المتقاطعة/ المتعددة

(Triangulation)، الإدماجية (Integration)، المركبة (Combination)، المتعددة (Multiplicity)، التوليفية (Synthesis)، الإبداعية (Inventive)، التجديدية (Innovative) ... ويمكن إضافة تسميات أخرى ناتجة عن الاختلاف في الترجمة إلى العربية، ومنها تلك التي أُنعت زميلنا لعياضي (2022) بسبب عدم تطابقها التام مع أصلها الإنجليزي: Bricolage/ Do it yourself، الترقيعية/ الترميقية/ الاستنهاجية...، والتي أفضل ترجمتها بـ"الجرفية". بل حتى الأدبيات الأنجلوساكسونية تختلف في التعبير اللغوي عن الكلمة الملازمة لصفة "المختلطة": منهج أم مناهج أم منهجية؟ (Mixed method, Mixed methods, Mixed methodology) (Evans, Coon & Ume, 2011, p. 4).

ويمكن إضافة:

- بعض الباراديغمات الشاملة مثل التعقيدي والإيكولوجي والتعددي الجدلي والظرفي والنسبي: فالباراديغم التعقيدي يعتمد على النظرية العامة للأنساق⁽³⁾ وعلى وجهة نظر متعددة التخصصات، للتمكن من فهم ما هو موجود ومن تحليل الظواهر في علاقاتها المتعددة. والباراديغم الإيكولوجي يتميز بنظرته الشاملة أيضا للعالم (Beltrán & Bernal, 2020) ولكن مع توجه خاص لفهم البيئة و"الاستدامة"، في ظل مقارنة معيشية وتشاركية ومتعددة التخصصات تتعدى النظرة الجزئية للواقع (Graham & Dayton, 2002). وباراديغم التعددية الجدلية (Dialectical Pluralism) الذي يأخذ بعين الاعتبار استخدام عدة باراديغمات بعناية وبشمولية وباحترام لإنتاج "كلٍ" جديد وأكثر تعقيداً (Metaparadigm)، ويكون في كثير من الأحيان عبارة عن مزيج من وجهات النظر والممارسات والقيم والافتراضات المتباينة و/ أو المتقاربة (Portilla, 2022, p. 197). والباراديغم الظرفي/ العرضي

⁽³⁾ ينقل "بورتيا" (Portilla, 2022, p. 198) عن "إدغار موران" (Morin, 2001) أن باراديغم التعقيد ناتج عن الباراديغمين النسقي والميكانيكي رغم تعارض مبادئهما. فمن الناحية التاريخية، ظهر باراديغم التفكير المعقد كنتيجة تطورية للتفكير النسقي "الشمولي"، والذي انبثق بدوره من التصور الميكانيكي "الاختزالي الخطي". لكن باراديغم التعقيد يتجاوزهما لصالح منظور حواري ومتكامل.

وما بعد الظرفي (Situationist & Post-situationist) بأبعادهما النفسية والفنية والحضرية الشاملة (Reátegui, 2020). والباراديغم النسبي... وكلها مرتبطة بخصائص (التعقيد والتعددية والشمولية والواقعية والنسبية...) تعطي حرية أكبر للباحث في تقدير مدى استخدام الباراديغمات وكيفية استخدامها.

- كما يمكن إضافة بعض ما يسمى مجازاً "باراديغمات" في مجال الاتصال بنظرياتها "الشائعة" إلى حين (دليو، 2014):

- الباراديغم النسقي: يشير أساساً إلى توافق عناصر السلسلة الاتصالية، أو إلى أن أي خلل يطرأ على أي عنصر من عناصر شبكة الاتصال يؤثر على الكل، وإلى أن نقطة انطلاق المعلومة هي موقع التحكم في النسق. وقد يلجأ هنا إلى نظريات القائم بالاتصال أو حارس البوابة...

- الباراديغم السلوكي: (نموذج المثير/الاستجابة): اعتماد نظريات التأثير القوي لوسائل الإعلام والاتصال: الطلقة السحرية والحقنة تحت الجلد.

- الباراديغم الوظيفي: يعتبر المجتمع كلاً تنظيمياً ووظائف عناصره متكاملة وتشارك فيها وسائل الإعلام والاتصال. مع الإشارة ضمنه إلى نظرية الاستخدامات والاشباع، وضع الأجندة...

وفي الأخير تجدر الإشارة إلى أن هناك من يفضل الاكتفاء بذكر "النظريات" دون منشئها الباراديغمي. أي أن هناك من يستقي من النظريات الاتصالية المحضبة - مثلاً - دون الإشارة إلى أي مدخل أو باراديغم عام، إما لعدم تفرقة بين الباراديغم والنظرية والمنظور، على غرار "جرين" و"جونسن" (; Greene, J. C., 2007) أو لاستغنائها (Johnson, R. B., 2017, p. 159 as Cited in Portilla, 2022. p. 197) بالفرع عن الأصل، فيتبنى منها عادة نظرية الاستخدامات والاشباع أو نظرية ترتيب الأولويات (وضع الأجندة) بتفصيلاتها المحدثثة (الإطار، الذروة...) أو نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام أو نظرية انتشار المبتكرات أو نظريات الوسط الافتراضي أو الرقمي...

وهي نظريات تبدو لامتناهية لكونها تتكاثر "فطريا" (مثل الفطريات)... ومعظمها ينتهي إلى المدخل الوظيفي "الولود" (الباراديغم المهيمن تقليديا) سابق الذكر، ومنها: نظرية التتبع الرقمي، نظرية ثراء الوسيلة، النظرية الموحدة لاستخدام التقنية، نظرية المعالجة المعلوماتية... وبالطبع من الصعب جدا إحصاء التقليدي منها والحديث، فالبعض (Anderson, 1996) عدّ 249 نظرية مع نهاية القرن الماضي، ولنا أن نتخيل مدى ارتفاع عددها مع استحداث نظريات الوسط الافتراضي (المستجدة والمعدلة للنظريات التقليدية)، وخاصة إذا أضفنا إليها نظريات الاتصال التنظيمي، ومنها أهم ما يدرس في بعض جامعاتنا: النظرية الكلاسيكية لـ"فايول" ونظرية الأنساق ونظرية العلاقات الإنسانية (أ. مايو) والنظرية الظرفية ونظرية التحليل الاستراتيجي والاتصال الشامل مع الزبائن (CRM...) وتلك الخاصة بالاتصالين الداخلي والخارجي والتسويق والعلاقات العامة والإشهار...

8- من يرفض استخدام الباراديغمات؟

إذا كان استخدام وتوظيف مرجعية الباراديغمات في البحوث الكمية ضروري جدا، فإن هناك من يعارض ذلك بحجة أن الالتزام بالباراديغمات يستدعي التقيد بمستلزمات الاعتماد عليها، وهو ما يُعتبر:

- معيقا معرفيا لتفعيل مسارات البحث إمبريقيا.
- مرجعيةً مكبلة لحرية الباحثين الكيفيين من البراغماتيين الذين ينصحون بالاكْتفاء بما ينضج به الواقع وتفاعلاته من بيانات وتصورات وتفاعلات... وهو رأي شائع -غير مجمع عليه- في أوساط الكيفيين، وحتى الذين يخالفونه منهم يرون أن الخلفية النظرية يُستأنس بها فقط بحكم دورها الثانوي في مسار البحوث الكيفية.

والأمر نفسه تقريبا -من الناحية العملية- عند مستعملي المناهج المختلطة، فمثلا، توصلت دراسة مسحية للبحوث المختلطة أجريت ما بين 2004 و2010 (في عدة قواعد بيانات: CINAHL, Medline, PubMed, PsychInfo, and Social

Sciences Index) أن 28 مقالا فقط استخدمت إطارا نظريا مسبقا من بينها 7 مقالات استخدمته بطريقة ضمنية/ غير معلنة (Evans, Coon, & Ume, 2011).

وعلى كل، فأنا أفضل -من الناحية الشكلية- استخدام تسمية إحدى المصطلحات الشائعة التي تم ذكرها سابقا، بدلا من كلمة "باراديغم"⁽²⁾، مثل: النموذج النظري أو المرجعية/ الخلفية النظرية وخاصة "الإطار النظري" (Theoretical Framework/s) الشائع حتى في الأدبيات الأنجلوساكسونية. فهي تؤدي المعنى نفسه دون استخدام الكلمة الأجنبية المنسوخة (Transcripted) عربيا (الباراديغم/ Paradigm)، وتقرب مفهومها لعامة الطلبة والباحثين المبتدئين.

9. خاتمة

في الأخير، يمكن القول أن فهم محددات استخدام الباراديغمات المعروضة في هذا العمل تتيح إمكانية البحث في البدائل المعرفية داخل وخارج الباراديغمات المهيمنة والبديلة (MacQuail, 2002) والناشئة - سابقة الذكر-، وأن أي باحث قد يحدد موقفه من استخدام الباراديغمات ومن أي من تبعاتها النظرية والمنهجية. مع تقديرنا هنا أنه يفضل استبعاد المواقف الراديكالية والمطلقة: الرفض الإقصائي -لدوغمائيته/تزمته الأيديولوجي- والتأييد الإباحي المطلق أو المريح (كل شيء صالح) -لعدم دقته وميوعته-، ولذلك قد نحتاج إلى تقدير أي نوع من أنواع الاستخدام -أو عدمه- هو الأنسب لموضوع البحث.

10. الإحالات والمراجع:

- أمزيان، محمد محمد. (1992). منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، الطبعة الثانية، السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي.

(2) تم استخدام كلمة "الباراديغم" هنا لأن هذا العمل عبارة عن نسخة معدلة عن مشاركة في ندوة علمية دُعيت لتغطية أحد محاورها الذي كان يحمل عنوان: استخدام وتوظيف الباراديغمات المناسبة (ندوة علمية حول منهجية البحث في علوم الإعلام والاتصال-2023/3/15- من تنظيم "مخبر استخدام وتلقي المنتجات الإعلامية والثقافية في الجزائر/ جامعة الجزائر3).

- دليو، فضيل. (2014). مدخل إلى منهجية البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر: دار هومة.
- دليو، فضيل. (2018). مدخل إلى علوم الإعلام والاتصال: المفاهيم والنماذج والأنظمة، الجزائر: دار هومة.
- دليو، فضيل. (2022). البحوث الكيفية: الأسس والمناهج. الجزائر: ألفا للوثائق.
- دليو، فضيل. (2023). مناهج البحث "المختلطة" (الكمية/الكيفية). يومان دراسيان حول منهجية إعداد مذكرة تخرج (2023/3/01-02/28). تنظيم نادي "وثبة" بالتنسيق مع المديرية الفرعية للأنشطة، جامعة قسنطينة2. متاحة عبر أهم مواقع التواصل الأكاديمية: https://www.researchgate.net/publication/368874261_mnahj_albht_almkhtltt_alkmyt_alkyfyt
- زعيبي، مراد. (1998). المدخل المنهجي الإسلامي في علم الاجتماع. في: دليو، ف. وآخرون: علم الاجتماع من التغريب إلى التأسيس. الجزائر: دار المعرفة. ص ص. 151-158.
- زعيبي، مراد. (2011). علم الاجتماع والمرجعية الإسلامية. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع.
- لعياضي، نصر الدين. (2022/5/25). مناهج البحث في علوم الإعلام والاتصال في السياق الرقمي: خلاف واختلاف. مركز الجزيرة للدراسات.
- Ander-egg, E. (1995). *Técnicas de investigación social*. Buenos aires: Ed. Lumen 24 ed.
- Anderson, J. (1996). *Communication theory: Epistemological foundations*. New York: Guilford.
- Atkinson, M. (2012). *Key concepts in sport and exercise research methods*, London: Sage Pub.
- Beltrán, S.M. & Bernal, J.A.O. (06-12/2020). Los paradigmas de la investigación: un acercamiento teórico para reflexionar desde el campo de la investigación educativa. Revista iberoamericana para la investigación y el desarrollo educativo. 11 (21). <https://www.scielo.org.mx/pdf/ride/v11n21/2007-7467-ride-11-21-e064.pdf>
- Bhattacharjee, A. (2012). *Social science research: Principles, methods, and practices*. Textbooks Collection. 3. http://scholarcommons.usf.edu/oa_textbooks/3
- Brannen, J. (2005). Mixed Methods research: A discussion paper, ESRC National Centre for Research Methods NCRM Methods Review papers, NCRM/005 [online] <http://www.bournemouth.ac.uk/cap/documents/MethodsReviewPaperNCRM-005.pdf>.

- Craig, R. T. (1999): Communication theory as a field. *Communication Theory*, 9, 119-161.
- Craig, R. T. (2007): Pragmatism in the field of communication theory. *Communication Theory*, 17(2), 125-145.
- Creswell, J. W.(2014).*Research design: Qualitative, quantitative and mixed approaches*(4th ed.), California: Sage.
- Denzin, N. K. (2012). Triangulation 2.0. *Journal of Mixed Methods Research*, 6(2), 80–88. <https://doi.org/10.1177/1558689812437186>
- Denzin, N. K. & Lincoln, Y. S. (Eds.). (2008). *The landscape of qualitative research* (3rd ed.). Sage Publications, Inc.
- Evans, Coon & Ume. (2011). Use of theoretical frameworks as a Pragmatic Guide for Mixed Methods Studies: A Methodological Necessity? *Journal of Mix Methods Res.* 2011 Oct. 1; 5(4): 276-292.
- Graham, M. H., & Dayton, P. K. (2002). On the Evolution of Ecological Ideas: Paradigms and Scientific Progress. *Ecology*, 83(6), 1481–1489. <https://doi.org/10.2307/3071968>.
- Greene, J. C. (2007). *Mixed methods in social inquiry*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Hesse-Biber , S.N. &Leavy, P. (2011). *The Practice of Qualitative Research*. CA: Sage.
- Johnson, R. B. (2017). Dialectical pluralism: A metaparadigm whose time has come. *Journal of Mixed Methods Research*, 11(2), 156–173.
- Juignet Patrick. (2015). Les paradigms scientifiques selon Thomas Kuhn. *Philosophie, science et société*. <https://philosciences.com/113>.
- Kuhn, T. (1962). *La estructura de las revoluciones científicas*. México: Fondo de Cultura Económica.
- McQuail, D. (ed.). (2002). *McQuail's Reader in Mass Communication Theory*. Sage.
- Mattelart, A. & Mattelart, M. (1997). *Historia de las teorías de la comunicación*. Barcelona: Paidós.
- Mayring, P. (2014). *Qualitative content analysis: theoretical foundation, basic procedures and software solution*. Klagenfurt (Open Access).

- Mertens, D. M. (2010). Transformative Mixed Methods Research. *Qualitative Inquiry*, 16(6), 469–474. <https://doi.org/0.1177/1077800410364612>.
- Moya C. y Otros. (2011). *Escritos de teoría sociológica*, Madrid: CIS.
- Neuman, W. (2006). *Social Research Methods: Qualitative and quantitative approaches*, (6th edn.). Boston: Pearson.
- Patton, M. Q. (1978). *Utilization-Focused Evaluation*. Beverly Hills: Sage.
- Portilla, G. J. (2022). Applied research paradigms. In: *Ye shall know them by their fruits: A Mixed Methods Study on Corruption, Competitiveness, and Christianity in Europe and the Americas*. Switzerland: Springer. pp. 197-202.
- Reátegui, M. (09/4/2020). Las prácticas situacionistas y el espectáculo como totalidad. In: <https://www.xn--maana-pta.pe/post/las-pr%C3%A1cticas-situacionistas-y-el-espect%C3%A1culo-como-totalidad>.
- Rodrigo, Miquel (2001). *Teorías de la comunicación*. Bellaterra: UAB, Servei de Publicacions.
- Sandelowski M. (1999). Time and qualitative research. *Research in Nursing & Health*. 22:79–87.
- Sitwala, Imenda. (01/2014). Is There a Conceptual Difference between Theoretical and Conceptual Frameworks?. *Journal of Social Sciences*, 38(2): 185-195.
- Tevni Grajales G. (2000): El Marco Teórico in file:///A:/invesmarcoteo.htm. [27/03/2000 04:39:13 p.m.].